صراع الشخصية بين القناع والواقع في موسم الهجرة الى الشمال للطيب صالح

الدكتور

حسين يوسف

استاذ مساعد

كلية الاداب

قسم اللغة العربية

درست رواية موسم الهجرة الى الشمال للطيب الصالح من زوايا مختلفة ، عبرت عن وجهات نظر متباينة ، إلا اننا سنقتصر في هذا البحث على تناول عوالم مصطفى سعيد بطل هذه الرواية ،الذي وقع في شبكة من الظروف لم يستطع التخلص بها ، وعاش اسير عالمين في كل مرحلة من مراحل حياته سواء في لندن او في السودان . مما جعل منه شخصية روائية مركبة الى حد التناقض وقد نبهنا مصطفى سعيد نفسه الى تعدد العناصر التي تتكون منها شخصيته ، وحذرنا من النظر اليه بعين واحدة (١) . لذا فهو يعيش في عالمين دائماً ، عالم القناع يعيش فيه ويتكيف له ، وعالم اخر هو عالم الواقع الذي يجد فيه نفسه ، ونرى مصطفى سعيد على حقيقته .

لقد صور الطيب صالح « مصطفى سعيد » ومنذ البداية بأنه يختلف عن الاخرين ، فهو يتمتع بذكاء متقد ، وتفوق مستمر ، وتميز عن الاخرين وطموح لامحدود ، واحساس بتفوقه الفردي . فقد تهيأت له اجواء قد تصل احياناً الى حد عدم التصديق ،فرحلته من السودان الى القاهرة ثم الى لندن ، وتجاوزه مختلف الظروف بسير وسهولة متناهية وكأن القدر وضع نفسه في خدمته ، وكل ذلك يوحي بأن لدينا وصفاً غير عادي لنشأة البطل و وشخصه (٢) .

---

(١) موسم الهجرة إلى الشمال ، الطيب صالح ، ص ٦٥ .

(٢) وهم العلاقة بين الشرق والغرب ،د. افنان القاسم ، مجلة الاقلام،عدد ١١ – ١٢ ،ص٩٢.

فقد دفع الى السير في هذا العالم دفعاً ولم يكن مختاراً ، وهو يدرك ذلك تماماً، فيتعجب من حياته قائلا « هل كان من الممكن تلافي شيء مما حدث»(٢)

(١)

تجسد حياة مصطفى سعيد في لندن جانبين يختلفان عن بعضهما كثيراً لم يتمكن من عقد الصلح او التآلف بينهما اطلاقاً ،ولو ان الروائي لايكشف عنهما امام القارىء في تسلسل زمني متعاقب .

ففي عالمه الاول « عالم القناع » نرى مصطفى سعيد شخصاً ذا عقلية متميزة ، وعقله المتميز هذا وضعه في الرابعة والعشرين من عمره في مركز استاذ للاقتصاد في جامعة لندن —وهو منصب ليس من السهل الحصول عليه سيما اذا كان الفرد اجنبياً — وعضو في جمعيات ونواد تخص بريطانيا وافريقيا معاً ، فقد امتلك قدرات علمية هائلة ، وادرك اهمية هذه القدرات إدراكاً عميقاً ، فحاول الاستفادة منها دائماً ، فضلا عن تمتعه بذكاء . مفرط مكنه من ان يرسم حول نفسه هالة من الاعجاب ، وهكذا تسلق بسهولة السلم الطبقي في المجتمع البريطاني ، وكون علاقات مع افراد الطبقة الأرستقراطية ، وشغل حيزاً بينهم « الرجل الأسود الوسيم المدلل لدى الأوساط ، المختلفة ، كان ، كما يبدو ، واجهة يعرضها افراد الطبقة الأرستقراطية للذين كانوا في العشرينات واوائل الثلاثينات يتظاهرون بالتحرر يقال انه كان صديقاً للورد فلان ولورد علان ، وكان ايضاً من الاثيرين عند اليسار الانكليزي » (٢٢) .

فقد استطاع بعبقريته ان يخضع لنفسه الناس بأسم الأفكار . والمعاني العامة ، وكان له بحق تأثير قوي على الكثيرين ، فالفلسفة ، والعلم والحياة نفسها

(١) الرواية ، ص ٣٢ ، ملاحظة : سنكتفي بكلمة «رواية» للاشارة الى موسم الهجرة الى الشمال من الصفحات التالية» .

(٢) الرواية ، ص ٦٢

لها النسبة له معان مغرية ، فهو ينمو امامنا كبنيان جمع كل شيء «عرفت أندية هامستد ، ومنتديات بلومزبري ، اقرأ الشعر ، واتحدث في الدين والفلسفة ، وانقد الرسم ، واقول كلاماً من روحانيات الشرق » (١) ، فهو متعدد المواهب ، له امكانات عقلية وثقافية كبيرة . وكان متحدثاً رائعاً وخطيباً مفوهماً«قلت لهم ان عمر الخيام لايساوي شيئاً الى جانب ابي نواس. وقرأت لهم من شعر ابي نواس في الخمر بطريقة خطابية مضحكة ،زاعماً أن تلك هي الطريقة التي كان الشعر العربي يلقى بها في العصر العباسي ،وقلت في المحاضرة ان ابا نواس كان متصوفاً ..... احس بالكلمات تتدفق على لساني كأنها معان سامية ،وكنت احس بالنشوة تسري مني الى الجمهور» (٢)

عاش مصطفى سعيد في قلب الحضارة آنذاك ، وكان جزءاً منها ، فيتحدث عن نفسه « ثلاثون عاماً وقاعة البرت تغص كل ليلة بعشاق بيتهوفن وباخ ، والمطابع تخرج آلاف الكتب في الفن والفكر ،مسرحيات برنارد شو تمثل في الرويال كورت والهيماركت ، كانت اديث ستول تغرد بالشعر ومسرح البرنس أوف ويلز يفيض بالشباب والألق ، الجزيرة مثل لحن عذب ، سعيد حزين ،في تحول سرابي مع تحول الفصول، ثلاثون عاماً وانا جزء من كل هذا » (٣) .واكثر من ذلك فهو لم يتمكن من التعايش مع هذا الواقع فحسب ، بل تمكن من التغلغل في بنيته الفكرية والعلمية (٤) . فبين رئيس لجمعية الكفاح لتحرير افريقيا ، الى مدرس في واحدة من ارقى الجامعات ، ومحاضر في الأقتصاد المبنى على الحب لا على الأرقام ، حيث اقام—في هذا المجال — على هذه الدعوة، هذا ما ورد على لسان آرثر هيغتز الاستار الذي درسه القانون في اكسفورد ، فضلا عن مؤلفاته الأقتصادية

(١) نفسه ، ص ٣٣ .
(٢) نفسه ، ص ١٤٤ .
(٣) نفسه ، ص ٤٠ .
(٤) البحث عن الشخصية الجديدة ، على الشرع ، ابحاث اليرموك ، عدد (٢) ، ص ١١.

العديدة «اقتصاد الأستعمار ، الأستعمار والاحتكار ، اغتصاب افريقيا ... الخ» ..

ويبدو ان هذه الكتب لقيت صدىً كبيراً بين اوساط المهتمين لهذا الموضوع ، لذا نجد ان بعضهم اعجب لها اعجاباً شديداً ، في الوقت الذي حاول الاخرون التقليل من شأنها وشأن افكار ودعوات مصطفى سعيد الأقتصادية ، فيقول احدهم معلقاً على ارائه ونظرياته « انني قرأت بعض ماكتب عما اسماه اقتصاد الأستعمار ،الصفة الغالبة على كتاباته ان احصائياته لم يكن يوثق بها . كان ينتمي الى المدرسة التي تختفي وراء ستار التعميم هروباً من مواجهة الحقائق المدعومة بارقام . العدالة ، المساواة ، الأشتراكية مجرد كلمات رجل الأقتصاد ليس كاتباً كتشارلز ديكنز» (١) . وذهب بعضهم الى ابعد من هذا النقد « انك يامستر سعيد رغم تفوقك العلمي ، رجل غبي » (٢) .

ويبدو . انه كان يعلم ان طريقه هذا صعب ووعر ، اذ اراد ان يحقق لنفسه وجوداً في لندن ، فقرأ كل شيء يقع تحت يده ، ومكتبته التي تضم اعداداً هائلة من الكتب توحي بسعة معينه ، وعمق ثقافته ، وكثرة مطالعاته. فنجد من المجموعة الضخمه التي جمعها كتب في الأقتصاد والتأريخ والأدب وين ، جيبون ، ماكولي ، تويتني اعمال برنارد شو هبسن ، توماس هاردي اي ، جي . مور ، فرجينيا وولف ، اينشتاين ، رحلات عليفرز ، تأريخ الثورة الفرنسية .... الخ ، كل ذلك يوحي بأن هذه الشخصية حاولت جاهدة استيعاب مايمكن استيعابه من ثقافة الغرب ، وهكذا بتجربته في هذا المجال كانت غنية ولها امتداد زمني دام ثلاثين عاماً ، تعامل مصطفى سعيد في هذا

(١) الرواية ، ص ٦١

(٢) نفسه ، ص ٦١

المجال بذكاء مفرط وسعي دؤوب اثار اعجاب اصدقائه واعدائه ، فاصبح جزءاً من عالم الفكر والثقافة ، واسماً لامعاً ذائع الصيت ، كل ذلك كان قناعاً تمكن من نسجه حول نفسه بدقة مناهية ، ولكن ماذا كان وراء كل ذلك القناع ؟ . مصطفى سعيد نفسه يحدد قائلا « انا لا اطلب المجد ، فمثلي لايطلب المجد » عبارة يكررها في ثنايا الروية اكثر من مرة ، اذن اين مصطفى سعيد الحقيقي عالمه الذي كان يجد فيه نفسه ، إن هذا يؤدي بنا الى ان ننظر الى الجانب الاخر من شخصيه الى عالمه الاخر الذي اسميناه عالم الواقع » ويقول مصطفى سعيد » كنت اعيش مع نظريات كينز و في النهار وبالليل اواصل الحرب بالقوس والسيف والرمح والنشاب » .

إن تشكيل عالمه هذا يختلف تماماً عن تشكيل عالمه الاول ، فهو يؤدي دوراً اخر بطريقة مختلفة ، فحين يتكلم عن الحياة الفكرية والفنية المسرح والشعر والموسيقى التي كان حزء منها ، يعيشها ولكنه لايحس بجمالها الحقيقي (١) ، لان ذلك لم يكن يعبر عن ذاته ، فاين يجد مصطفى سعيد الجمال الحقيقي ؟ .يحاول الطيب صالح القاء الضوء على عالم مصطفى سعيد الاخر من خلال علاقاته مع عدد من الشخصيات التي اراد البطل ان يخرجها من عالمها الخاص وادخالها الى عالمه هو بشتى الطرق ومختلف الوسائل .

فقد جعل من بيته الذي اقامه في قلب لندن جزءاً من العالم المفقود الذي يضع مصطفى سعيد نفسه فيه ، وكأنه بيت امير شرفي (٢) ، اجيد ترتيبه وتكوينه وزخرفته وتنظيمه ، فيه الكثير من سحر اجواء ليالي الف ليلة « الصندل والند — وريش النعام ، وتماثيل العاج والانبوس والصور والرسوم لغابات النخيل على النيل ، وقوارب على صفحة الماء اشرعتها كاجنحة

(١) الرواية ، ص ٤٠
(٢) ابطال في الصيرورة ، محي الدين صبحي ، ص ١٧

الحمام (١) » .وبيته بهذه المواصفات هو تارة مسرح يؤدي فيه ادواراً مختلفة ، وتارة وسيلة لخلق التأثير المطلوب على مشاعر وعواطف نسائه « غرفة نومي مخدعه من ريش النعام ، واضواء كهربائية صغيرة ، صفراء زرقاء ، وبنفسجية موضوعة في زوايا معينة » (٢) .

وهذه الأوصاف تتكرر في الرواية مرات عديدة ، مما يدل على انها تجسيد لدلالات رمزية اكثر من الوصف الواقعي ، فهو يقيم في عالمة هذا بعيداً عن عالمه الاول وتبدأ انطلاقة مصطفى سعيد من خلال هذا المكان الى فضاء عالمه الحقيقي ،فهو في علاقته مع شخصيات هذا العالم كان شغوفاً بالكذب واختلاق الاقاصيص بدرجه تمكنه من اختراع شتى تفاصيلها بحيث تبدو حقيقية .

« آن همند» طالبة من جامعة اكسفورد ، تدرس اللغات الشرقية ، تعرف عليها عندما كان يلقي محاضرة عن ابي نواس ، وكان منتشياً بالأكاذيب تتدفق على لسانه ، وكان يحس بالنشوة تسري فيه الى الجمهور «وآن همند» واحدة منهم وقلت في المحاضرة ان ابا نواس كان متصوفاً، وانه جعل من الخمر رمزاً حمله جميع اشواقه الروحية ، وان توقه الى الخمر في شعره كان في الواقع توقاً الى الغناء في ذات الله .... لكني كنت ملهماً في تلك الليلة ، احس بالأكاذيب تتدفق على لساني كأنها معان سامية « (٣) . وليس غريباً أنا تنجذب « أن همند» الى هذه الشخصية انجذاباً شديداً ، وهي فتاة مهتمة بالفلسفات الشرقية،وقد وقعت تحت تأثير هذه الفلسفات بشكل كبير ، ومترددة بين اعتناق الاسلام والبوذية ، فقد سحرت تماماً — بأجواء العالم الذي هيأه لها مصطفى سعيد ، لذلك نجدها تصور نفسها وكأنها تعيش

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٤٧ .
(٢) نفسه ، ص ١٤٧ .
(٣) الرواية ، ص ١٤٤ .

عالم الف ليلة ، وتتصرف وكأنها جارية يحق «ركعت وقبلت قدمي وقالت : انت مصطفى مولاي وسيدي وانا سوسن جاريتك... قلت لها بصوت آمر : تعالي ، فاجابت بصوت خفيض : سمعاً وطاعة يامولاي (١) .

مصطفى سعيد يدرك ادراكاً عميقاً كيف يتبع طرقاً ملتوية مع شخصياً عالمه هذا فهو يعبر عن نفسه بهذا الشكل (٢).لذلك فهو تعامل معهم جميعاً بشكل واحد .

«فايز أبيلا سيمور» وجدت فيه الرجولة البدائية والبس لقاءه معها ثوباً مزرشاً كأنه بذلك وضع تحتها بساطاً طائراً يجوب بها افريقيا وصحراء العرب لتتخلص من زحام النفس (٣) « رويت لها حكايات ملفقه عن صحاري ذهبية الرمال ، وادغال تتصايح فيها حيوانات لاوجود لها ، قلت لها ان شوارع عاصمة بلادي تعج بالافيال والاسود ، وتزحف عليها التماسيح عند القيلولة ... وجاءت لحظة احسست فيها انني انقلبت في نظرها مخلوقاً بدائياً عاريا» (٤). بهذه الطريقة كان يحاول دائماً التعامل مع شخصيات عالمه ، وسرعان ماكن يضعفن حيال ذلك الشيء الغامض الذي يحاول ان يبنيه في داخلهن بحس إنسان فنان مجرب ، فيقعن اسرى لعالمه هذا ،ويؤخذن بسيل جارف من الأقوال التي لا اساس لها من الصحة (٥) ، ففي كل مرة كان يعزف المقطوعة التي تثير ، واللحن الذي يسحر المقابل ، فيقول «لايزابيلا سيمور »التي كانت من اصل اسباني« لابد ان جدي كان جندياً في جيش طارق بن زياد.....ولابد انه قابل جدتك وهي تجني العنب

---

(١) نفسه ، ص ١٤٨

(٢) في معرفة النص ، يعنى العيد ، ص ٢٦٥

(٣) مغزى الموت ، ابراهيم عبدالله ، الطليعة الادبية ، عدد (٢) ١٩٨٠ ، ص ٢٨

(٤) شرق وغرب ، جورج طربيش ، ص ١٥٨

في بستان اشبيلية وعاش معها فترة ، ثم تركها وذهب إلى افريقيا ....
وخرجت انا من سلالته في افريقيا ،وانت جئت من سلالته في اسبانيا» (١)

ولم يختلف لقاؤه «بشيلا غرينوود» كثيراً عن لقاءاته السابقة ، فهي فتاة في مقتبل الشباب ،جذبها إلى عالمه واغراها بالهدايا والكلام المعسول ،والنظرة التي ترى الشيىء فلا تخطئه «وقفت وقتاً تضحك لخيالها في المرآة ، وتعبث بعقد العاج الذي وضعته كانشوطة حول جيدها الجميل» (٢).

وتستمر اللعبة ، ومصطفى سعيد يعيش عالم واقعه إلى ان يلتقي بـ (جين مورس) او حسب تعبيره بـ (عالم جين مورس)الاسم الذي يشار اليه طول الرواية من بدايتها حتى نهايتها ، فهي امرأة التقاها صدفة في حفلة وكأنها سراب لمع فجأة في صحرائه ، او انها قدر كان مصطفى سعيد على موعد معه منذ فترة طويلة . وبلقائها تبدأ حياته تأخذ طابعاً اخر ، اذ تبدأ معاناته وعذابه معها ، فبعد مطاردة طويلة لها دامت ثلاث سنوات دون كلل ... يبدأ صراع حياته ، صراع عالميه القناع والواقع ، وتبدأ مأساته الحقيقية . وكان يدرك ذلك بنفسه «كل شيىء حدث قبل لقائي اياها ، كان ارهاصاً ، وكل شيىء فعلته بعد ان قتلتها كان اعتذاراً لا لقتلها ، بل لاكذوبة حياتي» (٣) ، فهي ترفض ان تنجر إلى عالمه ، إلا انه لم يستطع ان يتركها او يتخلى عنها ،على الرغم من عدم قناعته بسلامة موقفه هذا «وما اكثر ما سألت نفسي ما الذي يربطني بها . لماذا لااتركها وانجو بنفسي؟ولكنني كنت اعلم ان لا حيلة لي وان لا مفر من وقوع المأساة» (٤) .

ويبدو ان «جين مورس»نفسها كانت من طينة تشبه بشكل ما مصطفى سعيد

(١) الرواية ، ص ٤٦
(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٨
(٣) نفسه ، ص ٣٣
(٢) نفسه ، ص ١٦٤

نفسه، من حياتها الخاصة وسلوكها وفي خلق اشياء غير حقيقية« كانت تكذب حتى في ابسط الاشياء، تعود إلى البيت بقصص غريبة عن اشياء حدثت لها ، واناس قابلتهم لا يمكن ان يصدقها العقل، ولا استبعد انها كانت عديمة الاهل كانت شهرزاد متسولة» (١) .

فلم تفلح اساليب مصطفى سعيد معها ، بل ان ارتباطه بها بهذه الصورة هيأ الساحة لصدام لا مفر منه ، فالمأساة واقعة لا محالة ، كان هناك قدراً مسبقـاً وتوجيهاً . فبدأت هي اولاً في دكه معنوياً ، والتلاعب باعصابه وتحطيم ثقته بنفسه (٢) ، علاوة على تحطيم عالمه مادياً «فأشارت إلى مزهرية ثمينة من الموجودة على الرف ،قالت تعطيني هذا .... اشرت موافقاً، اخذت المزهرية وهشمتها على الارض...اشارت إلى مخطوط عربي نادر على المنضدة .... قالت تعطيني هذا ايضاً .... اخذت المخطوط القديم النادر ومزقته وملأت فمها بقطع الورق ومضغتها وبصقتها . كأنها مضغت كبدي ، اشارت إلى مصلاة من حرير اصفهان .. اثمن شيىء عندي اعز هدية على قلبي .. فأخذت المصلاة ورمتها في نار المدفأة ، ووقفت تنظر بتلذذ إلى النار تلتهمها» (٣) كل هذا مقابل وعد بالاستلام له ، بيد ان الوعد لم يتحقق . لم يكن صراعه معها سهلا ، فقد خنقت حياته ، بل خنقت كل شيىء في داخله مما اضطره اخيراً إلى الموافقة على الزواج منها املاً في انهاء هذا الصراع ... الا ان ذلك كان بداية نهايته الحتيقية ولو ان الخيار لم يكن سهلاً ، فلم يكن هناك امامه اي خيار على الاطلاق ، ولم يكن بمقدوره الانفلات من اسرها . بل كانت تتحكم فيه كيفما تشاء . إلا انه لم يعد بمقدوره ايضاً تحمل طيشها ونزقها ، وخداع نفسه وعدم القدرة على فهم الذات واتخاذ القرار . فاصبحت حياته

(١) نفسه ، ص ١٠
(٢) نفسه ، ص ١٥٩

(3) Tayed salh' mustapa saecd, m.shaheen Arab- Jourral for Humeures No. 16. vol. 184 p. 286

معها دون جدوى . وكلما ادرك ذلك اصبحت موضع ازدرائه بل احتقاره وكراهيته .وصمم ان ينتصر عليها وان تنال العقاب المناسب ،فانتهى به الامر إلى قتلها . .

وتتوضح عوالم مصطفى سعيد في هذه المرحلة من حياته بشكل اكبر اثناء المحاكمة فهناك لمحات كثيرة تلقي الضوء على ذلك ، ونستشف من تحقيق احد المحامين «اليس صحيحاً انك ... كنت تعيش مع خمس نساء في آن واحد؟ وانك كنت تعدهم كلاً منهن بالزواج ؟ ...وانك انتحلت اسماً مختلف مع كل منهن ؟ ... انك كنت حسن ،وتشارلز ،وامين ، ومصطفى ، ورتشاردز ومع ذلك كنت تكتب وتحاضر عن الاقتصاد المبني على الحب لا على الارقام؟ اليس صحيحاً انك اقمت شهرتك بدعوتك الانسانية من الاقتصاد؟» (١) . فعالما، موضحان هنا بشكل لا يقبل الشك ، وقد ادرك بنفسه لذا نجده يحاوره نفسه اثناء المحاكمة ويتمنى التخلص من هذه الازدواجية ويتخلص من معاناته فيقول : «ومرة خطر لي .... ان اقف واصرخ في المحكمة : «هذا المصطفى سعيد لا وجود له ، انه وهم اكذوبة ، وانني اطلب منكم ان تحكموا بقتل الاكذوبة» (٢) ويبدو هنا وكأننا امام شخصين ، احدهما يتكلم عن الاخر ولا علاقة بينهما ، وكأن احد عالميه يحاول اغتيال او التخلص من الاخر الذي اصبح ثقلا كبيراً عليه .وللدفاع نفس التصور عندما يحاول ان ينقذه من حبل المشنقة فيؤكد بانه انسان نبيل ، استوعب عقله حضارة الغرب ،ولكنها حطمت قلبه» (٣) فقد استطاع ان يمتلك الحضارة بعقله ، لكن هذه الحضارة نفسها حطمت قلبه ، وهي المسؤولة عن ذلك ،فهو لم يكن جانياً بل مجنياً عليه ايضاً ولكن مصطفى سعيد يعلم بانهم لن يمنحوه الفرصة ، فرصة الخلاص ، فهو يحس بالصراع الذي يعانيه ولم يتمكن من ايقافه بل ادرك تماماً بان عالميه إنهارا كلياًلذا اراد ان يجدوا له سبيل الخلاص ويوفروا على انفسهم الجهد —

(١) نفسه ، ص ٣٨ — ٣٩ .

وهو غير قادر على الاستمرار في لعبة القناع والواقع بعد ... ويحكم عليه بالسجن سبع سنوات ، يغادر بعدها ، ويستقر في السودان ... في قرية من قراها وتبدأ مرحلة ثانية من حياته .

(٢)

يبدأ الطيب صالح روايته بهذه المرحلة من حياة مصطفى سعيد ، التي تجسد ايضاً عالمين مختلفين خلقهما لنفسه ، «عالم القناع» وهو عالم مجتمع القرية ، وعالمه الاخر «عالم الواقع» كما فعل في لندن تماماً .

سلك مصطفى سعيد السبيل نفسه في ان يكون جزءاً هاماً من هذا المجتمع ، وان يضع لنفسه بداية جديدة لحياته في هذه القرية ، بمنأى عن مظاهر الحضارة ، ويعيش الحياة هنا منسجماً مع اساطيرها وقصصها ومعتقداتها . فينصرف إلى حياة العمل التي تعيشها مثل هذه القرية النائية وكأنه واحد منهم فاشترى ارضاً وتزوج من احدى بنات القرية ، فاراد ان يحقق لنفسه وجوداً مادياً يرتبط به بين هؤلاء الناس ، لذا لعبت شخصيته القوية دورها هنا ايضاً في رسم وتجسيد نمط حياته الجديدة ، واستطاع ان يستوعب طريقة تفكيرهم واسلوب معيشتهم وطبيعة مشاكلهم ، التي تبرز في ارتباط شديد بالبيئة المعيشية ، لذا فيرسم له احد افراد القرية صورة توحي بالرضا عنه وقبوله «إن مصطفى طوال اقامته في البلد ، لم يبدُ منه شيء منفر ، وانه يحضر صلاة الجمعة في المسجد بانتظام وانه يسارع بذراعه وقدمه في الافراح والاتراح» (١) . وفي حوار مع الراوي يبين مصطفى سعيد بأن هناك انسجاماً وتآلفاً بينه وبين هذا المكان فهذا هو العالم الذي كان يبحث عنه «كنت طوال حياتي اشتاق للاستقرار في هذا الجزر من القطر ، لا اعلم السبب ، وركبت الباخرة ، وانا لا اعلم وجهتي ، ولما رست في هذا البلد ، اعجبتني هيئتها وهجس هاجس في قلبي ، هذا هو المكان ، وهكذا كان ، كما ترى ، لم يخب ظني في البلد واهله» (٢) .

---

(١) الرواية ، ص ١٠

(٢) نفسه ، ص ١٤

واستطاع ان يعمل في اطار علاقة عادية مباشرة مع الناس والارض والحياة في بلده(١)،ولكي يغطي على شخصيته الحقيقية،بدأ بتحقيق وجود اجتماعي بينهم ،وتمكن بطبيعته القوية العميقة والراغبة ان يحقق هذا الوجود ، فاشترك في نشاطاتهم،وعمل على تغيير الاسس المادية للحياة عن طريق تطوير علاقات الانتاج (٢).وفعلاً اصبح عضواً في اللجنة الزراعية،واحتل موقعاً مهماً فيها وساهم في حل مشاكلها «إحتد النقاش وتصايحوا بعضهم على بعض .... رأيت مصطفى يهب واقفاً ... ولما فرغ من كلامه هز اغلب اعضاء الجمعية رؤوسهم استحساناً» (٣) ان هذا المقطع يوضح موقع ومكانة مصطفى سعيد وتأثيره على مجتمع القرية، المتكون من عمدة وتاجر واعضاء وكلهم من اولي الامر ، وهذا حال مصطفى سعيد عليه ان يكون ذا جدارة،شخصاً من عجينة اخرى (٤) . واسهم ايضاً بخبراته السابقة في تنظيم الجمعية ، واستغلال موارد الجمعية المادية في تطوير جوانب عديدة من حياتهم «لقد ساعدنا مساعدة قيمة في تنظيم الجمعية ، كان يتولى الحسابات ... هو الذي اشار باستغلال ارباح المشروع في اقامة طاحونة للدقيق .. وهو الذي اشار علينا ايضاً بفتح وكان تعاوني« (٥) . لقد اجاد مصطفى سعيد هنا ايضاً في اداء دوره اجادة تامة ، فقد كان غريباً عنهم الا انه تمكن بفترة قصيرة ان يصبح جزءاً منهم، قبلوا به شخصاً جاء وتعاملوا معه حسب القوانين والمراسيم المعهودة ، اشترى الارض فباعوه الارض ، يريد ان يتزوج فزوجوه (٦) . فاستطاع ان يحقق كل ما يصبو اليه ، فعاش في تناسق وتوازن عجيبين مع عالمه هنا ، وكأنه قد

---

(١) في معرفة النص ، ص ٢٥٧
(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٥٨
(٣)
(٤) وهم اللاقة بين الشرق والغرب ، ص ٩١
(٥) الرواية ، ص
(٦) الطيب صالح عبقرية الرواية العربية ، ص ١٣٤

عاش في هذه البيئة طول حياته ، وهذا ما يذكرنا «بعالم القناع» في لندن ، فقد أحسن في خلق كل شيىء هنا ايضاً .

الا انه لم يتمكن من الاستمرار في اللعبة ، فالانعطاف الكبير في مسيرة حياته في هذه المرحلة جاء بعد ان تعرف على الراوي(١). فيحدث ذلك تحولاً كبيراً في حياته ، فهذا اللقاء يكشف لنا عن عالمه الحقيقي او ما نسميه «عالم الواقع» الذي كان قد اجاد في اخفائه عن المجتمع هنا . فقد احس الراوي ومنذ لقائه الاول به انه ليس شخصاً عادياً فيقول «لم يكن ثمة ادنى شك في ان الرجل من عجينة اخرى» (٢). فسلوك مصطفى سعيد اثار الراوي في اكثر من لقاء بينهما «لم يغب عني ادبه الجم ، فاهل بلدنا لا يبالون بعبارات المجاملة ، يدخلون في الموضوع دفعة واحدة» (٣) . وتتوثق العلاقة بينهما ، ويضطر مصطفى سعيد إلى ان يزيح القناع عن شخصه ، ويكشف عن حقيقته للراوي ، ففي مجلس شراب يتلو مصطفى سعيد وهو في حالة سكر شعراً بلغة انكليزية تحدث تأثيراً صاعقاً على الراوي ، فيتحول كل شيىء هناك في نظره إلى وهم من شدة الدهشة «اقول لكم لو ان عفريتاً انشقت عنه الارض فجأة ، ووقف امامي ، عيناه تقدحان اللهب ، لما ذعرت اكثر مما ذعرت ، وخامرني بغته ، شعور فضيع ، شيىء مثل الكابوس ، كأننا نحن الرجال المجتمعين في تلك الغرفة ، لم تكن حقيقة ، انما وهماً من الاوهام» (٤) .

ومن هنا يبدأ الصدام بين عالمي مصطفى سعيد ، فمهما يحاول مراوغة الراوي الا ان الامور لا تسير كما يحلو له ، فوجوده هنا اصبح امام تساؤل كبير ، فليس بامكانه ابداً الجمع بين عالميه اكثر من ذلك ، وان الصدام بينهما قد بدأ فعلاً وانهما سينهاران لا محالة . لذلك يختار طريق الاختفاء من على هذا

---

(١) (الراوي) هو احد افراد ، درس في لندن لسبع سنوات ، رجع اليها حديثاً .
(٢) الرواية ، ص ١٦
(٣) نفسه ، ص ١١
(٤) نفسه ، ص ١٨

المسرح ويفعل ذلك.فمنذ استقراره في هذا البلد تراوح بين صورتين ويحتمل اخفاء موقت لاحداهما على حساب الاخرى (١) . ففي الصورة الاولى لا نجد حضور هوية المثقف في تعامله اليومي مع الحياة ،بل يصر مصطفى سعيد على العمل على اخفاء هويته هذه ، ويحاول الغاءها من فعله اليومي (٢) . ونبدأ بالتعرف على عالمه الحقيقي «عالم الواقع» الذي كان قد حجبه بستار كبير عن اقرب الناس له .. ففي حوار بين الراوي وزوجة مصطفى سعيد نجدها تجهل عالمه هذا تماماً.«قلت : لماذا جاء هنا ؟.قالت : الله اعلم .... اظنه كان يخفي شيئاً . لاحقتها بالسؤال لماذا ؟.قالت : كان يقضي وقتاً طويلاً بالليل في تلك الغرفة ..وازددت ملاحظة : ماذا في تلك الغرفة ؟ قالت : لا ادري ، انا لم ادخله قط ، المفتاح معك لماذا لا تتحقق بنفسك« (٣) .

كان «عالم الواقع» هنا عالماً محدداً جداً يتناسب مع طبيعة هذا المجتمع ، فغرفته هذه جعل منها ميداناً لعالمه الخاص هو ، حتى انها تحولت إلى لغز من نظر الاخرين »قال لي محجوب بصوته المخمور :هل تدري ما بداخلها ، قلت له : (نعم) قال : ماذا ؟ فقلت وانا اضحك تحت وطأة الخمر : لا شيىء لا شيىء اطلاقاً ، هذه الغرفة نكتة كبيرة كالحياة ،تحسب فيها سراً وليس فيها شيىء . قال محجوب : انت سكران هذه الغرفة مليئة من ارضها إلى سقفها بالكنوز ذهب وجواهر ودرر ولآلىء» (٤)،هذا هو انطباع الاخرين،ومنهم الراوي ، عن غرفة مصطفى سعيد المقفلة وعالمه الذي لم يره احد بعد .الا ان الحوار يستمر بين الشخصيتين في ربط واضح من قبل الروائي بين مصطفى سعيد وعالمه هذا «هل تعلم من هو مصطفى سعيد ؟قلت له ان مصطفى سعيد اكذوبة ، وضحكت مرة اخرى ضحكة مخمور وقلت له : هل تريد ان

(١) وهم العلاقة ، افنان القاسم ، ص ٩٢
(٢) يمنى العيد ، ٢٥٦
(٣) الرواية : ص ٩٤
(٤) نفسه ، ص ١١٠

تعرف حقيقة مصطفى سعيد ؟ فقال محجوب : انت لست سكران بل مجنون ايضاً . مصطفى سعيد هو في الحقيقة نبي الله خضر ، يظهر فجأة ، ويغيب فجأة« (١) . ولم يستطع الراوي ان يستمر في مثل هذه الحالة من الترقب والحيرة ، فيقرر ولوج الغرفة «ادرت مفتاح الباب ، استقبلتني رطوبة من الداخل ورائحة مثل ذكرى قديمة — انني اعرف هذه الرائحة ورائحة الصندل والند« (٢) . ان هذا الوصف يذكر القارىء بشكل لا يقبل الشك بغرفته في لندن فالمقارنة واضحة جداً تدل على تشابههما ، «فعالم الواقع» عند مصطفى سعيد هو واحد سوى ان المعادلة هنا مقلوبة. «عالم الواقع» عنده له خصوصيته تحمل سماته شخصيته دائماً : «مدفأة انكليزية بكامل هيئتها وعدتها ، فوقها مظلة من النحاس وامامها مربع مبلط بالرخام الاخضر ، ورف المدفأة من رخام ازرق ، وعلى جانبي المدفأة كرسيان فكتوريان مكسوان بقماش من حرير المشجر بينهما منضدة مستديرة عليها كتب ودفاتر« (٣) .

فالمكان والاثاث هنا لا يختلفان عن اية غرفة انكليزية في وسط لندن بكل ظلاله والوانه ، الغرب كله بكل ملامح الحياة فيه اودعها مصطفى سعيد غرفته اللغز (٤) .

وينتقل الراوي إلى ذكر كل ما احتفظ به مصطفى سعيد هنا من صور ولوحات مختلفة كل واحدة منها تمثل جانباً من جوانب تجاربه الفنية والمثيرة كأنه اراد ان يوثق كل شيء في حياته . فكل شيء هنا له معنى ، وكل شيء مرتبط بصميم شخصيته. وليس هناك اي شيء دون دلالة «ذهبت إلى الصور المصفوفة على الرف . مصطفى سعيد يضحك ، مصطفى سعيد يكتب ، مصطفى سعيد يسبح ، مصطفى سعيد في مكان من الريف ، مصطفى سعيد في الزي الجامعي

(١) نفسه
(٢) نفسه ، ص
(٣) نفسه ، ص ١٣٧
(٤) البحث عن الشخصية ، علي الشرع ص ١٣

مصطفى سعيد لم يترك اية لحظة تمر الا وسجلها للذكرى والتاريخ« (١) . ثم يفصل الراوي في ذكر اهم ما في عالم مصطفى سعيد هنا رفوف كتبه وكأنه جمع كل ثقافة الغرب ، وما كتب في الفكر والفن والسياسة والاقتصاد اضافة إلى مؤلفاته هو : «علم الاجناس ، علم الاجتماع ، علم النفس ، طوماس هاردي ، طوماس مان ، براولي ، دواوين شعر . يوميات غوردون ، طوماس كرلايل ، لورد اكتن ، كتب مجلدة بالجلدة ، كتب من اغلفة من الورق كتب مهلهلة قديمة ، كتب كأنها خرجت من المطبعة لتوها... مجلدات ضخمة من حجم شواهد القبور .. كتب في صناديق ، كتب على الكراسي ، كتب على الارض ، اية دعاية هذه ؟ اودن ، فورد ، ستيفان زفايغ ، اي .جي . برادن ، لاسكي ، هازلت ، أليس في ارض العجائب ، رتشاردز ، القرآن بالانكلزية ، الانجيل بالانجليزية ، غلبرت مرى ، افلاطون ، اقتصاد الاستعمار ....» (٢) اعداد هائلة من الكتب والمؤلفات لا حصر لها ، اضافة إلى اعماله العلمية الخاصة ، وكأنه اراد ان يجمع «كل تجاربه مع الحضارة الغربية ، الغرب كله : ثقافته ، انجازاته الفكرية العلمية ، معايير الحرية في الفكر والسلوك .. فنونه ، الحوار بين الاتجاهات الفكرية المتعارضة» (٣) ، الانسان هنا في عالم دون حدود ، عالم غرفة بينه وبين مجتمع القرية في السودان فارق ثقافي هائل ، وفجوة ليس بالامكان ردمها بسهولة ، عاش فيها بل وصنعها مصطفى سعيد ووجد نفسه فيها .

ويبدو مما سبق ان مصطفى سعيد كان يعاني في مرحلتي حياته بـ « عـدم شعوره بالانتماء » اي عدم تمكنه من تحقيق انتماء متكامل ، وربما كان من مدعاة ذلك هو عدم توحده مع اي من المجتمعين ، وعدم النظر الى نفسه بوصفه جزءاً من المجتمع ، سواءاً في بريطانيا او في السودان ، ان عدم التوحد مـع

(١) المصدر السابق ، ص ١٤٠.
(٢) الرواية ، ص ٣٨ – ٣٩.
(٣) البحث عن الشخصية ، على الشرع ، ص ١٤.

المجتمع ،ومن ثم شعوره بعدم الأنتماء الى اي من المجتمعين ، ادى به الى قطع روابطه وشعوره بانعدام المعنى في وجوده ، بدليل هروبه في الحالة الاولى واختفائه في الحالة الثانية .

ففي لندن نجد بانه بذل جهوداً كبيرة موظفاً كل قدراته الذهنية ليكون جزءاً من المجتمع هناك ، فمع انه تمكن من تحقيق طموحه الفكري والعلمي ، إلا أنه لم ينجح في الوصول الى «انتماء اجتماعي » حقيقي ،فهو لم يتمكن من خلق وحدة بين عالم القناع وعالم الواقع ،وهذا يمثل الأشكال الذي تمركز فيه الصراع الذي عاشه مصطفى سعيد فنحن نتعرف على ملامح هذه الشخصية في الطفولة والصبا واهم ذكرياته في السودان والقاهرة في بداية حياته ، نستكشف منها حشاشة تركيبه الروحي والنفسي (١) على الرغم من مذرات ، عقلية متميزة منذ الصغر ، لكن لم يتمكن فيما بعد من تشكيل شخصيته اجتماعية طبيعية قابلة للتكيف مع الظروف ، وتحويل معرفته العقلية الى نمط سلوك اجتماعي متسق (٢) . ورغم استمرار الحنين الى اقامة العلاقات والرغبة في ان يحقق نفسه اجتماعياً ،ولكنه لم يفلح في كل مرة. ولهذا بقي عالماه بعيدين عن بعضهما ولم يتمكن من توحيدها ، وكانت استجابته عالم لندن الكبير بذوات متباينة ،غير ملتزم تجاه المجتمع بأي شكل ، وليس لديه — وحسب قناعته — اي سبب في الحفاظ على شخصية فكان له السبب الواضح في اتخاذ اي دور يشاء ،ودفعه هذا الشعور على فعل مايقوم به في كل الأحوال ، هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى كان مصطفى سعيد يعي جيداً وضعه ، ويعرف تماماً طبيعة المجتمع المحيط به ، وكان يحس بالضعف حياله.وبعدم قدرته على تحقيق وجود متكامل فيه ، والرواية تشير الى هذا الامر بشكل واضح وعلى لسان اكثر من شخصية ،ويدركه هو

(١) المصدر نفسه ،ص١٠-١١ .
(٢) نفسه ص ١١

نفسه ادراكاً كبيراً، فقد كان تذكيره بأنه افريقي يعزز نظرته بأنه ليس بأمكانه أن يأخذ مكانه الصحيح في هذا المجتمع ، فيقول له كبير المحامين « انـــت يامستر سعيد خير مثال على ان مهمتنا الحضارية في افريقيا عديمة الجدوى فانت بعد كل المجهودات التي بذلناها في تثقيفك تخرج من الغابـــة لاول مرة » (١) ، ويعلق مصطفى سعيد على مجموعة المحلفين اثناء محاكمتـــه «اشتات من الناس، منهم العامل والطبيب والمزارع والمعلم والتاجر والحانوتي، لاتجمع بيني وبينهم صلة ،لو اني طلبت استئجار غرفة في بيت احدهـــم . فأغلب الظن انه سيرفض ، واذا جاءت ابنة احدهم تقول اني سأتزوج هـذا الرجل .... فيحس حتماً بأن العالم سينهار تحت رجليه »(٢) .

وتقول له شيلا كرينوود ، امي ستجن وابي سيقتلني اذا علما انني احبك او انني على علاقة بشخص مثلك (٣) . فلم يتمكن من التجاوب لمثل هذه الاعتبارات التي كان يحس بها احساساً عميقاً ، فهو حتى حين يكون ، صادقاً مع نفسه في«عالم الواقع » يكون مجبراً ان يكون كاذباً مع الاخريـــن فيلجأ الى المراءاة والمخادعة ، معتمداً على ألاعيب كلامية وادرار مستعارة ، مما ادى الى توسيع الفجوة بين عالم القناع وعالم الواقع .ويضيق عالم الواقع بحيث لاتتخطى بيئه، والصراع الذي تجسد بعد ذلك نتيجة محاولته ردم هذه الفجوة بين هذين العالمين كان سبب انهيارها ، ومن ثم نهايته هو .

اما في السودان فالمعادلة كانت مقلوبة فقد تمكن من تحقيق ، انتمـــاء اجتماعي إلا أنه لم يتمكن من تحقيق انتماء فكري .فالحياة من تلك القرية المزريه ، ونمط العيشة، وما ينطوي عليه من تفاهة وخواء وركود ولاحركة كل ذلك كان في تناقض مباشر مع الثقافة العصرية التي يمتلكها مصطفى سعيد صحيح انه كان يبحث عن بداية جديدة، وقد يكون قد وجدها فعلا ، إلا انه لم

---

(١) الرواية ، ص ٧٢ .
(٢) الرواية ، ص ١٤٠.
(٣) الرواية ، ص ٩٦ — ٩٧.

يستطع ان يتواصل مع ذلك فكرياً فهو هنا «يعيش مع الناس ولا يعايشهم يختلط بهم ولا في لطهم وليعامل منهم من خلال قناع مزارع قدماه من الطين ومن عقوبة ارقى الثقافات » (١) . لذا فبنى لنفسه عالماً خاصاً يكون فيه هو نفسه دون قناع .

ولكنه لم يستطع ان يستمر على هذا المنوال لأن نداءاً بعيداً يتردد من اذنه « ظننت ان حياتي وزواجي هنا سيسكتانه ، ولكني لعلي خلقت هكذا ، او مصيري هكذا ، لا ادري ، انني اعرف بعقلي مايجب فعله ..... ولكن اشياء مبهمة في روحي وفي دمي تدفعني الى مناطق بعيدة تتراءى لي ولا يمكن تجاهلها» (٢) ففضل الرحيل او الأختفاء .

فمصطفى سعيد في مرحلتي حياته كان يمتلك القدرة الشخصية الكبيرة القابلة على الخلق لا تضاهى ، فقد اجاد في خلق عوالمه سواءاً في لندن او في السودان اجادة رائعة ، إلا انه لم يتمكن من خلق انسجام وتوافق بينهما ، ونتيجة لتصادم عالميه ، وتعقد موقفه يقع من تناقض شديد مع المجتمع ومع نفسه مهما اجادت نسج خيوط بنائه في الحالتين ، فينهار العالمان معاً بسبب هذا التصادم . وقد شغل موضوع الصدام هذا حيزاً في الرواية ، واولاه الروائي اهمية كبيرة ، لانه يمثل نقطة اللقاء بين قناع البطل وواقعه ، ونقطة النهاية من مسيرة حياته ، ولم يكن بمقدر مصطفى سعيد تحاشي هذا الصدام في كلتا الحالتين ، بل كان يحاول التخلص منه بشتى السبل فلم يفلح .

وكان رد فعله في الحلقة الاولى قوياً عنيفاً ، ادى الا ارتكابه جريمة قتل رد فعل مواز لقوة الصدام ، بينما نجد في المرة الثانية اختار الأختفاء ، فتأتي في كل مرة اللحظة الحاسمة ، عندما يقف وسطاً بين عالمين المتناقضين «القناع والواقع » للذين سرعان مايصطدمان فتكون نهاية درامية له .

---

(١) الطيب صالح عبقرية الرواية العربية ، ص ١٤٩.
(٢) الرواية ، ص ٧٠ — ٧١.

المصادر

١ — **ابطال في الصيرورة ، دراسات في الرواية العربية والمعربة ،**
محيي الدين صبحي ، بيروت ، دار الطليعة ، ١٩٨٠ م —.

٢ — **البحث عن الشخصية الجديدة في موسم الهجرة الى الشمال ،**
علي الشرع ، ابحاث اليرموك ، المجلد الخامس ، العدد الثاني ، ١٩٨٧ م .

٣ — **شرق وغرب ،**
جورج طرابيشي ، ط٣ ، بيروت : دار الطليعة للطباعة والنشر ، ١٩٧٩.

٤ — **الطيب صالح ، عبقرية الرواية العربية ،**
احمد سعيد محمدية (واخرون) ، بيروت ، دار العودة ، ١٩٨١ .

٥ — **في معرفة النص (دراسات في النقد الأدبي)**
حكمت صباح الخطيب (يُمنى العيد) ، بيروت ، دار الافاق الجديدة ، ب ت .

٦ — **مغزى الموت في ادب الطيب صالح الروائي**
عبد الله ابراهيم ، الطليعة الأدبية ، وزارة الثقافة ، بغداد ، العدد الثاني ، السنة السادسة ، شباط ١٩٨٠ م .

٧ — **موسم الهجرة الى الشمال ،**
الطيب صالح ، بيروت ، دار العودة ، ١٩٧٢ م.

٨ — **موسم الهجرة الى الشمال او وهم العلاقة بين الشرق والغرب ،**
افنان القاسم ، مجلة الاقلام ، وزارة الثقافة ، بغداد ، العدد ١١ — ١٢ ، كانون الأول — ١٩٨٦ .

المصادر الانكليزية

9— **Toyeb Salih's Mustafa Sa'eed: The Southern Invader in Icy Battlefield,** Mohamed Shaheen, Arab Journal For the Humanities, No. 10. Vol. 14. Autumn, 1984.

النقد الأدبي بين الفن والعلم

د. جهاد المجالي
قسم اللغة العربية
كلية الاداب
جامعة مؤته

ملخص

يعرض هذا البحث لموضوع الامر من حيث كونه علماً او فناً . ولقد توصل إلى ان النقد الأدبي عمل إبداعي كاي نوع من أنواع الفنون الأخرى وإن اشترك مع العلم في بعض السمات ، فهو فن قائم بذاته ولا يحرمه ارتباطه بالفنون الأخرى من ان يكون عملا إبداعياً . والأهم من ذلك ان النقد الأدبي يستند إلى ملكة الذوق ، فالشاعر او الأديب يخلق ليتذوق ، أما الناقد فيتذوق ليخلق . وهذه الملكة الفطرية (الذوق) لايمكن ان تتحقق بالأكتساب من خلال الدراسة والممارسة ، والاهتداء بالمعايير والقواعد الموضوعة ، مما يجعل الناقد ولادة ، أي انه يولد كما يولد اي فنان .

Abstract

This paper investigates the nature of literary criticism,whether it is a science or an art.The researcher concluded that literary criticism is an art and a creative process, though it carries some scientific trait. The most significant reason for regarding literary criticism as an art is its reliance on thecritic's faculty that cannot learned or acquired.